المحاضرة الثانية: نظريات نشأة اللغة الإنسانية

لقد شغلت قضية نشأة اللغة تفكير العديد من العلماء واللغويين والباحثين والفلاسفة، عبر حقب زمنية متعاقبة، وذلك من خلال طرحهم السؤال التالي: كيف نشأت اللغة أول مرة ؟ وما هو أصلها الأول؟

ناقش المفكرون هذه المسألة، وطرحوا حولها آراء عديدة، وتبلورت هذه الآراء إلى أن غدت نظريات متكاملة، ولم تتفق على قول واحد، وكل منها يتميز بأدلة خاصة، كما تعرض كل منها إلى انتقادات خاصة جعلت منها محل شك، وأخرجتها من دائرة اليقينية إلى دائرة التخمينات والافتراضات.

ولم يزل هذا الاختلاف إلى اليوم، غير أن النقاش فيه توقف، وانصرف المحققون عن الخوض فيه، بعد اليأس منه، إلى درجة أن قررت الجمعية اللغوية في باريس 1878م منع تقديم أبحاث في موضوع نشأة اللغة؛ لأنه لا سبيل إلى الوصول إلى نتيجة يطمئن إليها البحث العلمي [1]، ومع هذا فمعرفة ما توصل إليه الباحثون في الموضوع جديرة بالطالب الجامعي، حتى وإن لم يفض البحث في الموضوع إلى نتيجة؛ ذلك أنه من الفائدة الاطلاع على طريقة تفكير العلماء القدامى، والوقوف على ما اطمأنوا إليه من الأدلة ولا سيما العلماء العرب الذين أدلوا بدلوهم في المسألة، وعرضوا آراءهم واستدلالاتهم بكل علمية وجدية.

وأشهر النظريات التي ظهرت لتفسير نشأة اللغة الإنسانية هي:

1 ـ نظرية الوحي أو التوقيف أو الإلهام:

تنص هذه النظرية على أن الله أوحى للإنسان لغته ليتكلم بها، وألهمه إياها إلهاما، فلا وضع له فيها، وهو أعجز من ذلك، فهي بذلك توقيفية لا يمكنه أن يجتهد فيها قيد أنملة.

ولهذه النظرية أصل عند الإغريق، وتُنسب إلى الفيلسوف اليوناني "هيرالكيت" المتوفى سنة 480 ق م، وامتدت إلى العصور الوسطى عند الغرب المسيحي، بتأثر من الكتاب المقدس، ومال إليها في العصر الحديث الأب الفرنسي "لامي" (ت 1711م)، كما تبناها المفكر الفرنسي دي بونالد (ت1840م)[2].

أما في تراثنا العربي فإن رائد هذه النظرية هو أحمد بن فارس (ت 395هـ)، حيث يقول: «إن لغة العرب توقيف. ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: (وعلم آدم الأسماء كلها)

[1] يُنظر: فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص77

[2] يُنظر: الوجيز في فقه اللغة العربية، عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ط01، 1998م، ص20.

فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء. وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علمه أسماء ذريته أجمعين. والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس »[1]، كان هذا رأي ابن فارس ذكره في كتابه بكل وضوح، ثم راح يسوق الأدلة عليه وما استأنس به منها، ومنها تركيزه على فكرة الاحتجاج بلغة العرب وأشعارهم، إذ لو كانت اللغة مصطلحا عليها لما كان للاحتجاج بلغة متواضع عليها معنى، وإلا لم حصل الإجماع على الاحتجاج بلغة العرب في زمن متقدم من أزمانها ؟ ثم يفسر ابن فارس مسألة وصول اللغة إلينا، ويرى أن الله تعالى وقّف آدم على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إليه آدم في زمانه، ثم علم الأنبياء العرب مثلما علم آدم، حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقرّ قرار اللغة العربية في زمانه، وأيضا فإنّه لم يقل أحد بأن قوما سابقين اجتمعوا واصطلحوا على تسمية شيء من الأشياء، حتى الصحابة الكرام، وهم الفصحاء والبلغاء[2].

وقد ذهب ابن جني إلى موقف مختلف، فلم يجزم بتوقيفية اللغة كابن فارس، بل تردد بين القول بتوقيفيتها وبين القول بالمواضعة والاصطلاح.

وباستثناء ابن جني ومن تابعه في رأيه يكاد يجمع علماء العربية وأئمتها على أن اللغة توقيف وإلهام، لا يختلفون في ذلك عما ظل سائدا في الغرب إلى قرون متأخرة في الأوساط الكنسية[3].

ورغم اعتماد هذه النظرية على نصوص وأدلة نقلية إلا أنها لم تسلم من انتقادات موجهة إليها، ومنها[4]:

ـ أن نص التوراة الذي اعتمده أصحاب النظرية: (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول) هو حجة عليهم لا لهم، لأن فيه نصا على أن آدم هو من وضع الأسماء.

---

[1] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص14.
[2] يُنظر: المصدر نفسه، ص15، 16.
[3] يُنظر: دراسات في فقه اللغة، ص34.
[4] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه ـ موضوعه ـ قضاياه، ص59.

ـ أن الآية التي استدل بها علماء المسلمين ليست دليلا قويا، إذ اختُلف في تفسيرها والمراد بالأسماء المذكورة، ويجوز مثلا في تأويلها أن الله تعالى « أقدر آدم على أن واضع عليها»[1].

ـ أنه لو كانت اللغة وحيا من الله تعالى لما جاز لأحد أن يضيف إليها شيئا أو يدخل عليها اسما، فكيف ونحن ندخل عليها من المصطلحات والأسماء الجديدة الشيء الكثير؟ بل إن وجود ظواهر في اللغة مثل الترادف والاشتراك والتضاد دليل على أن اللغة ليست كلها توقيفا من الله تعالى.

2 ـ نظرية التواضع والاصطلاح:

تتلخص هذه النظرية في أن اللغة تتشكل من اتفاق الناس ووضعهم للكلمات باختيار منهم، بحيث يصطلحون على كذا وكذا من الألفاظ، ومن القائلين بالمواضعة والاصطلاح الفيلسوف اليوناني ديموكريت في القرن الخامس قبل الميلاد، وبعض الفلاسفة الإنجليز[2].

يشرح ابن جني هذه النظرية بقوله: «وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره، وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين »[3]، وقد ذكر هذه الفكرة نفسها الفيلسوف الغربي "جون جاك روسو" في تفسيره لنشأة اللغة، إذ رأى أن الناس في القديم اجتمعوا لوضع لغة واتفقوا عليها، وهذا الاتفاق هو ظاهرة من ظواهر العقد الاجتماعي[4].

وقد اعتُرض على نظرية الاصطلاح والمواضعة بعدة اعتراضات، نذكر منها[5]:

ـ بأي لغة اصطلح المجتمعون الحكماء على وضع اللغة؟ إن التواضع لا بد محتاج إلى لغة سابقة يُتفاهم بها، وإذا لم تكن ثمة لغة قبل التواضع فكيف تم التفاهم على الاجتماع والتواضع؟ إن هذه النظرية لا تحل المشكلة إذن.

ـ إن هذا القول بالاصطلاح مجرد دعوى فارغة، لا تقوم على دليل بيّن، فإنه لم ينقل أحد أن جماعة اجتمعوا فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة.

---

[1] الخصائص، ص41.
[2] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه ـ موضوعه ـ قضاياه، ص59، 60.
[3] الخصائص، ص44.
[4] يُنظر: فقه اللغة في الكتب العربية، ص86.
[5] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه ـ موضوعه ـ قضاياه، ص60، 61.

3 ـ نظرية المحاكاة والتقليد:

رأى أصحاب هذه النظرية أن اللغة إنما نشأت تقليدا للأصوات المسموعة من الطبيعة، ومحاكاةً للأصوات الطبيعية الصادرة عن الحيوانات والأشجار والرياح والرعود و...

يقول ابن جني في ذلك: « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل »[1]، والظاهر أن ابن جني معجب بهذا الرأي، ولا أدل على ذلك من إيراده في "الخصائص" لباب أسماه: (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، ومضمون هذا الباب له شديد الصلة بنظرية التقليد التي تحاول معرفة أصل اللغة.

ومن الباحثين المحدثين الذين يؤيدون القول بمحاكاة أصوات الطبيعة من الغرب والشرق: عالم اللغات الدانماركي أوتو جسبرسن، وإبراهيم أنيس، وعلي عبد الواحد وافي، يقول هذا الأخير: «وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية »[2].

يرى هؤلاء ومن حذا حذوهم أن اللغة بدأت تقليدا للأصوات التي يسمعها الإنسان من حوله، مع استخدام الإشارات والإيماءات، ثم أخذ هذا التقليد ينمو ويتطور إلى أن أصبح لغة بإمكانها الاستغناء عن الإشارات الأولى، تماما كما يتعلم الطفل لغته، فإنه يتعلمها من التقليد، ثم تنمو اللغة لديه وتستقيم، وكذلك فإن كثيرا من الأمم البدائية تستخدم الإشارات باليد والرأس والجسم للمساعدة في التعبير والتواصل.

تلك كانت هي أدلة القائلين بهذا الرأي، وتتلخص في أن هذه النظرية تساير طبيعة الأشياء التي تبدو بسيطة في منشئها ثم تنمو وتتطور، وبالرغم من ذلك فقد وُجّهت مآخذ واعتراضات على النظرية، ومنها[3]:

ـ أنها تجعل مستوى الإنسان دون مستوى الحيوان الذي يقلده، ومنزلته أقل من منزلة الحيوان وأشياء يسمعها في الطبيعة، وهذا غير معقول.

ـ أن الكلمات التي لها صلة بالمعاني قليلة في كلمات اللغة الراهنة.

---

[1] الخصائص، ص46، 47.
[2] علم اللغة، ص105.
[3] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه ـ موضوعه ـ قضاياه، ص62.

ـ أن هناك كثيرا من الأمم البدائية يتكلمون بلغات ليس فيها أثر للمحاكاة و التقليد للطبيعة.

4 ـ نظرية الغريزة الكلامية:

تنص هذه النظرية الحديثة على أن الإنسان مزود بغريزة خاصة تدعوه إلى التعبير عن مدركاته الحسّيّة والمعنوية بكلمات خاصة، ولذلك كانت التعابير والمفردات عند الإنسان الأول متحدة، لكنها انقرضت بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى وانقضاء حاجة الإنسان لاستخدام هذه الغريزة، ومن أصحاب هذه النظرية عالم اللغة الفرنسي رينان (ت1890م)، والألماني مولر (ت1900م)[1].

اعتمد مولر على البحث في مفردات اللغات الهندية الأوربية، حيث ظهر له أنها تعود إلى أصول تمثل اللغة الأولى التي انبثقت عنها هذه اللغات، وعدّ هذه الأصول فوجدها تبلغ خمسمائة أصل، وعند تحليله لها وجد أنها تدل على معان كلية، مما يستحيل معها القول بمواضعة اللغة واصطلاحيتها، كما وجد أنه لا تشابه مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من حالة أو فعل، وهو ما يفنّد القول بمحاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة، وإذا بطل هذان القولان لم يبق إلا أن اللغة إنما نشأت عن طريق غريزة زُوّد بها الإنسان للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطري للتعبير بحركات جسمية وأصوات بسيطة للتعبير عن انفعالاته[2].

وقد لقيت هذه النظرية انتقادات شديدة منها[3]:

ـ أن المعاني الكلية التي توصل إليها مولر تدل على رقيّ ووعي لا يمكن أن يصاحب اللغة الأولى في منشئها، فهي لا تعدو أن تمثل مرحلة متقدمة من مراحل تطور اللغة وحسب.

ـ أن موضوع الغريزة الكلامية هو مشكلة أخرى بإزاء مشكلة نشأة اللغة، فبدل أن تحل هذه النظرية المشكلة أضافت مشكلة أخرى، إذ لا يُعرف كيف استخدمت الغريزة أول مرة للتعبير عن حاجات الإنسان.

كانت هذه هي أشهر النظريات حول مسألة نشأة اللغة الإنسانية، وهناك نظريات أخرى غير ذات شأن، وعلى ضعفها لم تتوصل هي الأخرى إلى نتيجة مرضية يمكن أن تحل جزءا من المشكلة.

---

[1] يُنظر: المرجع السابق، ص63.
[2] يُنظر: علم اللغة، ص101.
[3] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه ـ موضوعه ـ قضاياه، ص63.

ولكن ما يمنع أن تكون هذه النظريات مجتمعةً قد أسهمت بالفعل في إبراز صورة شاملة عن القضية، ومحاولة جادة للإجابة عن السؤال وحل الإشكال؟

يمكن لنا تصور نظرية جديدة توفيقية، تجمع أشهر هذه النظريات في آن واحد، وتستبعد من جميعها ما يمكن أن يطرح تناقضا أو غموضا، إذ تحتمل كل واحدة من النظريات شيئا من الصواب ولا بد، فإذا جمعنا صواب هذه إلى صواب تلك فقد نخرج بما يوفق بينها ويكون الأقرب إلى حقيقة المسألة، « فمما لا شك فيه أن الله ـ تعالى ـ علم آدم الأسماء، ولو تركنا البحث والخلاف في معنى الأسماء، وتصورنا قدرا من اللغة تعلمه آدم وأولاده من بعده ثم ذريتهم، وأضفنا إلى ذلك أن الله ـ عز وجل ـ قد وهب الإنسان قدرة على التعبير عما في نفسه؛ فذلك الجهاز المسمى بجهاز النطق، وذلك العقل المدبر المحرك للإنسان قادران على التعبير عما يستجد من أمور إما عن طريق التقليد والمحاكاة ـ كما نرى في محاولات الطفل ـ وإما عن طريق الاصطلاح كما يحدث كلما جد جديد في الحياة وُضع له الاصطلاح المناسب. وبهذا يمكن الجمع بين النظريات جميعا في تصور نشأة اللغة الإنسانية »[1].

إن ولادة اللغة ونشأتها ونموها عبر العصور والأزمنة المتباعدة لهي أشبه بحياة اللغة عند الطفل منذ ولادته إلى بلوغه، فهذه صورة مصغرة تُبرز لنا استعدادا فطريا في البداية لدى الطفل لتعلم اللغة، وفيه إشارة إلى الإلهام الذي يلهمه الله للإنسان، ثم نلاحظ الطفل يحاول تعلم اللغة عن طريق محاكاة الأصوات من حوله: من أصوات أفراد عائلته وأصوات الحيوانات وأصوات الطبيعة جميعا، وهنا تظهر نظرية المحاكاة بقوة، ثم يكبر الطفل وقد يكون عضوا في جماعة لغويين يصطلحون على كلمات وأسماء تضاف إلى مفردات اللغة بمرور الوقت.

[1] المرجع السابق، ص64، 65.